المحاضرة العاشرة: ظاهرة التضمين والتناوب في القرآن الكريم

أولا: تعريف التضمين لغة واصطلاحا.

تعريف التضمين لغة.

ورد في لسان العرب أن: " ضمن: الضَّمِينُ: الْكَفِيلُ. ضَمِنَ الشيءَ وَبِهِ ضَمْناً وضَمَاناً: كَفَل بِهِ. وضَمَّنَه إياه... وَيُقَالُ: ضَمِنَ الشيءَ بِمَعْنَى تَضَمَّنَه؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَضْمُونُ الْكِتَابِ كَذَا وَكَذَا... وضَمَّنَ الشيءَ الشيءَ: أَوْدَعه إياه كَمَا تُودِعُ الوعاءَ المتاعَ والميتَ القبرَ "[1].

بالنظر إلى هذه المعاني اللغوية يمكن القول أن مادة ضمن تدل على الإيداع والاستيعاب.

تعريف التضمين اصطلاحا.

عرفه الزركشي بقوله:" هو إعطاء الشيء معنى الشيء وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف؛ فأما في الأسماء فهو أن تضمن اسما معنى اسم لإفادة معنى الاسمين جميعا كقوله تعالى: **(حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق)** ضمن حقيق معنى حريص ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه.

ومن أمثلته أن يقول أحدهم : جلست على فراشي، وأملت جسمي إلى متكئي؛ فيختصر الكلام ويقول: جلست إلى متكئي؛ ومثل هذا الإيجاز القائم على الحذف والإيصال، أسلوب ينتهجه بلغاء العرب، وتقدير الكلام : جلست مائلا إلى متكئي.[2]

وخلاصة القول أن التضمين أسلوب لغوي يفيد التوسع في المعنى، ويكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف.

ثانيا: تعريف التناوب لغة واصطلاحا.

تعريف التناوب لغة.

جاء في معجم مقاييس اللغة أن: " **(نَوَبَ)** النُّونُ وَالْوَاوُ وَالْبَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى اعْتِيَادِ مَكَانٍ وَرُجُوعٍ إِلَيْهِ. وَنَابَ يَنُوبُ، وَانْتَابَ يَنْتَابُ. وَيُقَالُ إِنَّ النُّوَبَ: النَّحْلُ، قَالُوا: وَسُمِّيَتْ بِهِ لِرَعْيِهَا وَنَوْبِهَا إِلَى مَكَانِهَا. وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ جَمْعُ نَائِبٍ "[3].

---

[1] : لسان العرب – ابن منظور – مادة (ض م ن) – ج: 13 – ص: 257.

[2] : ينظر: التضمين والاستعمال البياني في القرآن – ستار فليح حسن جاسم العبيدي – مجلة كلية الشريعة – العدد: 06 – ص: 269.

تعريف التناوب اصطلاحا.

تبادل الأحكام اللغوية كأن تأخذ صيغة صرفية الأحكام النحوية والدلالية لصيغة أخرى، وتتناوب معها معنى ومبنىً. [4].

والتعريف الذي سنركز عليه هو تعريف متعلق بمعاني الحروف لتشعب مصطلح النيابة في النحو، وكذا لاختلاف العلماء قديما وحديثا حول هذا الباب – محل الدراسة – بصفة خاصة.

فيعرف عند النحاة ب: "وقوع حرف الجر موقع بعضها للدلالة على المعنى، فالتناوب أن يأتي حرف بمعنى حرف آخر) كما في قوله تعالى :﴿ **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ** ﴾ (طه:71)، يقول المفسرون وأهل اللغة إن الأداة (في) في هذه الآية جاءت بمعنى (على)"[5].

ثالثا: أقسام التضمين.

أ: تضمين الفعل.

يقول ابن جني في الخصائص:" اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه وذلك كقول الله عز اسمه (**أحِلّ لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم**) وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة وإنما تقول : رفثت بها أو معها لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء وكنت تعدى

---

[3] : مقاييس اللغة – ابن فارس – مادة (ن و ب) – ج: 5 – ص: 397.

[4] : ظاهرة التناوب اللغوي بين المشتقات الدالة على الفاعلية والمفعولية والمصدر – مالك يحي – مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها – العدد: 22 – 2010م - ص: 122.

[5] : ينظر:التناوب والتضمين عند النحويين والتفسيريين..بين أدوات الجر – خديجة المومني – مركز نماء للبحوث والدراسات – ص: 09، وتناوب حروف الجر في ديوان امرؤ القيس – عبد الرحمان الذنيبات ونضال محمود الغرابة– 2011م - ص: 37.

أفضيت ب (إلى) كقولك : أفضيت إلى المرأة جئت ب (إلى) مع الرفث إيذانا وإشعارا أنه بمعناه كما صححوا عور وحول لما كانا في معنى اعورَّ واحولَّ " [6].

أمثلة:

1: قال تعالى:(**وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**).(الأنبياء – الآية:77).

فأصل (نصر) أن تتعدى ب:(على)، فتقول: ونصرناه على؛ غير أنه لما تضمن ههنا معنى جنبناه ومنعناه وكلاهما يتعدى بحرف الجر (من) أجرينا(نصر) بمعنى جنَّب ومنع. [7]

2: أن يتضمن الفعل اللازم معنى الفعل المتعدي.

قال تعالى:(**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ**).(يوسف – الآية:100).

هنا تضمن فعل (أحسن) معنى(لطف)؛ والفعل (أحسن) تعدى بحرف يتعدى به فعل آخر، لكنه لما تضمن هنا معنى (لطف) تعدى بالحرف الذي يتعدى به هذا الفعل، وهو حرف الجر " الباء" فجاء في قوله عز وجل: :(**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي**). [8]

ب: تضمين الاسم.

1: أن يتضمن اسم معنى اسم آخر.

مثاله: قوله تعالى: (حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ).(الأعراف – الآية:105)

تضمن لفظ (حقيق) إلى حريص بالمعنى الأقل، وواجب علي بالأكثر. [9]

2: أن تورد فعلا ظاهرا دالا على معناه الوضعي وعلى معنى آخر للفظ محذوف كالحال المقدرة.

مثاله: قوله تعالى: (**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**).(البقرة – الآية:185) .

قال الزمخشري:" وإنما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمنا معنى الحمد، كانه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم" [10].

---

[6] : الخصائص – ابن جني- ج: 02 – ص: 308.

[7] : في التضمين اللغوي – سعيد شنوقة- مجلة التواصل – العدد: 10 – 2003م - ص: 13.

[8] : في التضمين اللغوي – سعيد شنوقة- ص: 13.

[9] : في التضمين اللغوي – سعيد شنوقة – ص: 13.

فالفعل (تكبروا) لا يتعدى بحرف الجر "على" لكن لما تضمن معنى الحمد، جيء معه بهذا الحرف؛ فاللفظ الظاهر هو:(تكبروا)، إلا أنه مع ذلك تضمن معنى اسم هو الحمد فكأنه قيل: ولتكبروا الله حامدين؛ ونحن نفهم من هذا أن حامدين اسم فاعل بابه الإعرابي هو حال منصوبة. [11]

3: يأتي التضمين في الأسماء كذلك بذكر الفعل الدال على معناه الذي وضع له، وكذلك على معنى المحذوف الذي يقر حالا في الغالب.

مثاله: قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**).(البقرة – الآية:04) .

ج: تضمين الحروف.

قبل الحديث عن ذلك يحسن أن نبين موقف العلماء من قضيتي التضمين والنيابة في الحروف.

أولا: رأي المذهب البصري.

يرى معظم البصريين أن أدوات الجر لا تتناوب، وأنه ليس لأداة الجر إلا معنى واحدا حقيقيا، فالأداة (في) مثلا تؤدي معنى الظرفية، و(على) معنى الاستعلاء،(من) معنى الابتداء، و(إلى) لانتهاء، وأن الفعل هو الذي ينبغي أن يضمن معنى يناسب أداة الجر الذي تعدى به، والأداة تبقى على معناها الأصلي أو بتأويل يقبله اللفظ فيكون بمثابة الرابط بين الفعل والأداة، وفي الحالتين تكون الأداة مؤشراً ا ودليلا على وجود معنى آخر خفي مضمن في اللفظ المذكور له دلالته.[12]

ثانيا: رأي المذهب الكوفي.

ذهب معظم الكوفيين إلى جواز وقوع أدوات الجر بعضها موقع بعض؛ لأنهم يرون التوسع في

---

[10] : الكشاف – الزمخشري- ج: 01 – ص: 254.

[11] : في التضمين اللغوي – سعيد شنوقة- ص: 09.

[12] : ينظر: التناوب والتضمين عند النحويين والتفسيريين ..بين أدوات الجر – خديجة المومني – مركز نماء للبحوث والدراسات – ص: 10،

معاني أدوات الجر بحيث لا يقتصر الحرف على معنى واحد بل له أكثر من معنى يؤديه تأدية حقيقة لا مجازية. [13]

أمثلة عن حروف الجر في التضمين.

إن الذي يحدد وظيفة الحرف الدلالية طبيعة السياق الواردة فيه، وبهذا يكون لاستعمال الحرف قصد إلى معنى معين، إما أن يكون واحدا قطعيا، أو أن يكون له أكثر من معنى: معنى ظاهر ومعنى متضمن، ومن أمثلته فعل(سمع)، إذ يتعدى في القرآن الكريم بأكثر من حرف على نحو الأمثلة الآتية. [14]

فمرة يتعدى **باللام** في قوله تعالى: (**وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**).(المنافقون – الآية:04)؛ ومرة **بمن** في قوله تعالى: (**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا**).(آل عمران – الآية:186)؛ ويتعدى في موضع آخر **بإلى** في قوله تعالى: (**لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ**).(الصافات – الآية:08)؛ ويتعدى في موضع آخر **بالباء** في قوله تعالى: (**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً**).(يوسف – الآية:31)؛ وقد يتعدى بنفسه أيضا في قوله تعالى: (**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ**).(المجادلة – الآية:01)؛ فاستعمال الأحرف في كل آية منها فيه قصد إلى معنى يحدده السياق.

رابعا: أهم فوائد التضمين.

أ: الإيجاز والاختصار: من فوائد التضمين تأدية معنيين بلفظ واحد مع غاية الاختصار والإيجاز؛ فهو مفتاح من مفاتيح هذه اللغة الشريفة، وسر من أسرارها؛ يفترُّ عن بديعة، ويفضي إلى لطيفة، وهو من طريف ما استودعته اللغة من نجواها، لأنه أذهب في الإيجاز

---

[13] : ينظر: التناوب والتضمين عند النحويين والتفسيريين ..بين أدوات الجر – خديجة المومني – مركز نماء للبحوث والدراسات – ص: 10،

[14] : ينظر: ظاهرة النيابة في العربية – ص:295، والتضمين النحوي وتوجيهاته في القرآن الكريم – مازن عبد الرسول سلمان – ص: 20.

والاختصار، وأجمع لخصائص الصَّنعة؛ وفيه من الإيماء والتلويح ما ليس في المكاشفة والتصريح، وذلك أحلى وأعذب. [15]

ب: التوسع في المعنى: فإن قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ ... قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ. [16]

ج:يعصم من الخطأ: [17] من ذلك ما ذكره ابن هشام في قوله تعالى:(**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**).(البقرة:226) قائلا:" أَي يمتنعون من وَطْء نِسَائِهِم بِالْحلف فَلهَذَا عدي بِمن، وَلما خَفِي التَّضْمِين على بَعضهم فِي الْآيَة وَرَأى أَنه لَا يُقَال حلف من كَذَا بل حلف عَلَيْهِ قَالَ من مُتَعَلقَة بِمَعْنى للَّذين كَمَا تَقول لي مِنْك مبرة قَالَ وَأما قَول الْفُقَهَاء آلى من امْرَأَته فغلط أوقعهم فِيهِ عدم فهم الْمُتَعَلّق فِي الْآيَة" [18].

---

[15] : ينظر: التضمين في النحو العربي وتطبيقاته في القرآن الكريم – آسيا غربوج – مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية – العدد: 03 – 2016م – ص: 18.

[16] : ينظر: الكشاف – الزمخشري – ج: 02 – ص: 717.

[17] : ينظر: التضمين النحوي وأثره في المعنى – هادي أحمد فرحان الشجيري – مجلة الأستاذ – العدد: 22 – 2013م – ص: 213.

[18] : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب – ابن هشام جمال الدين – ت: مازن المبارك – 1964م – ج: 01 – ص: 899.